في الحكايات الشعبية

بقلم : فوزي العنتيل

- ١ -

القصص الشعبي

يرى بعض الدارسين بأنه من الممكن أن يصنف القصص المأثور - بشكل تقريبي الى : أساطير ، وقصص خوارق ، أو قصص أحداث غير عادية ، وتتضمن ما يسمى بحكاية البطل ، والملاحم النثرية . أما النوع الثالث فهو الحكايات الشعبية .

ومن ناحية أخرى فان القصص المأثور ينتظم بصورة طبيعية في صنفين : قصص رويت على أنها حقائق وهي الأساطير ، وقصص الخوارق ، وقصص قيلت للتسرية وهي الحكايات الشعبية بمختلف أنواعها .

واذا كنا نستخدم - في طريقة الحديث العادية - تعبير «الأساطير» ، وقصص الخوارق كما لو كانا متبادلين ، فان دارسي الحكايات الشعبية والمأثورات بعامة يفرقون بينهما ، فيقولون بأن الأسطورة قصة مخترعة ، ربما بغرض تفسير الأحداث الطبيعية الخارقة كالزلازل ، أو تفسير ما هو أقل خطرا من ذلك كطلوع الشمس وغروبها ، أو يكون غرضها تفسير بعض الأحداث الانسانية مثل الأحلام ، والتي كانت شيئا محيرا بالنسبة للشعوب البدائية .

أما حكاية الخوارق أو حكاية الأحداث غير العادية فانها من جهة أخرى ليست قصة مخترعة ، انها شكل تاريخي اختلط وأصبح غامضا نتيجة للاضافات المتأخرة .

فقد تجتمع فيها كل ألوان الأشياء الغريبة التي أضيفت اليها ، وقد يلتف حولها كثير من « المختلقات » والأساطير ، ولكنا نجد فيها - بصفة أساسية - نواة الحقيقة مهما اعتراها من تشويه .

ومن الممكن الا نشيء في الحكاية الشعبية أنها قصة خوارق ، حتى يكشف البحث التاريخي والآثاري عن الحقيقة التاريخية مدخرة فيها .

ان مصطلح « قصة الخوارق » يعني في الاصل شيئا يتلى في الصلوات الدينية - أو في وقت الطعام ، وكان هذا الشيء في العادة هو حياة القديسين والشهداء ، ومن

ثم ، فقد أصبحت تستخدم في حكاية يفترض أنها تعتمد على الحقيقة مع خليط من المواد المأثورة قيلت حول شخص أو مكان أو حادثة .

فهذا الشكل من الحكايات يقصد لأن يكون رواية لبعض الأحداث غير العادية التي يعتقد بأنها قد وقعت فعلا كظروفان أو هجرة ، أو غزو ، أو بناء جسر أو مدينة .

ومع أنها في الغالب تدور حول اشخاص تاريخيين أو حول حوادث تاريخية ، فان قصة الخوارق نفسها قد تكون مغلوطة ، أو لا اساس لها ، أو تكون قد رويت عن اشخاص آخرين في أماكن أو أقطار بعيدة .

اما الأسطورة ، فهي قصة تقدم كأنها قد وقعت بالفعل في العصور الماضية ، قصة تفسر مأثورات الناس حول العالم وما وراء الطبيعة ، كما تفسر آلهتهم وأبطالهم والسمات الثقافية ، ومعتقداتهم الدينية وغيرها . فهي اذن قصة تعليلية غرضها تفسير وجود العالم ، والحياة والموت ، والانسان ، والوحوش ، والطقوس المقدسة والعادات ، وما الى ذلك من الظواهر العامضة .

على أن الحد الفاصل بين الأسطورة ، وحكاية الخوارق مبهم في الغالب ، وان كان من الممكن القول بأن الممثلين الرئيسيين في الأسطورة هم الآلهة ، وان غرضها هو التفسير ، بينما قصة الخوارق قد رويت على أنها حقيقة ، في الوقت الذي نجد فيه ان صدق الأسطورة يرتكز على ايمان سامعيها بالآلهة الذين هم أشخاصها .

ان الصعوبة في تحديد الأسطورة قد جاءت من أنها قد سبقت مناقشتها منذ أمد بعيد ، وأنها قد استخدمت في كثير من المعاني المختلفة .

وقد حاول الدارسون المحدثون تحديدها في أنها حكاية موضوعة في عالم يفترض انه سابق لوقتنا الحاضر ، وأنها تتحدث عن الكائنات المقدسة ، والأبطال ، وأنصاف الآلهة ، كما تقص نشأة جميع الأشياء من خلال الأفعال في العادة .

وترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية وممارسات الناس . فلا بد اذن من وجود الأساس الديني من وراء الأسطورة بالنسبة للشخصية الرئيسية فيها ، أو يكون الممثلون فيها من الآلهة .

فحيثما لا يقع مثل هذا التبادل في العلاقة ، وكذلك حينما لا يظهر الآلهة أو أنصاف الآلهة ، فمن الأنسب أن تصنف هذه القصص كحكايات شعبية .

* * *

اذا تعمقنا الاساطير وجدنا أنها تمثل الاجوبة التي يقدمها العقل الانساني للمشكلات التي تتعلق بكيفية حدوث الأشياء مثل : كيف خلقت الأرض والسماء ؟ أو كيف جاء الشر الى العالم ؟ .

ولقد واجهت معظم المشكلات المتصلة بالتجربة الانسانية الأساسية ذاتها في كل مكان ، ومن ثم فانه لا يثير الدهشة لدينا أن تكون الأجوبة في أجزاء مختلفة من العالم شديدة التشابه .

فالأسطورة اذن تمثل الاجابة الأولى للعقل الانساني عن هذا الاحساس بالتعجب والذي هو جذور الفلسفة كما يقول أرسطو .

انها تحاول أن تجيب بالتخيل عن الأسئلة التي يتشد العلم ـ فيما بعد ـ أن يجد حلا لها عن طريق التعليل العلمي .

ويقول بعض الدارسين « اذا كانت الأسطورة تمثل «شكلا» متكرا وبسيطا للعلم ، فان حكاية الحيوان تمثل « شكلا » مشابها بالنسبة للأدب الخيالي ، أما قصة الخوارق فانها « تاريخ » من نوع ثنائي » ، وهي تخالف قصة الحيوان في أنها تتعلق بشخص فعلي أو مكان أو ظاهرة اجتماعية او دينية .

ويبدو أن قصة « الخوارق » لها جذورها في بعض الشخصيات الواقعية أو الأماكن او الطقوس ، التي بعد أنها قد استهوت الخيال الشعبي ، فانها بالنسبة لاستهوائها الشديد الخيال قد تعرضت الى تأثيرها الخاص اضافات مختلفة من «مخزون» الأسطورة ، او حكاية الحيوان .

فقد تتحدث « قصص الخوارق » مثلا ، عن قتال مع المخلوقات العربية التي ما تزال العامة تعتقد فيها كالجنيات ، والأشباح ، وما الى ذلك ، وقد يبدأ هذا النوع من القصص بما توارثته الأجيال كذكريات ـ غالبا ما تكون خيالية ، بل وحتى غير معقولة ـ عن بعض الشخصيات التاريخية .

هذا ، ويبغي مراعاة ان هذه القصص بسيطة دائما في بنائها ، ولا تشتمل في العادة على أكثر من حركة قصصية واحدة .

ويجب أن نضع نصب أعيننا كذلك ما قاله الدارسون من أنه يكاد يكون متفقا عليه بصفة عامة أنه يجب تناول قصة الخوارق بحسب ما تعنيه ، وليس كلغز يوارى بعض المعاني الخفية ، وذلك لأن ما تسميه قصة من قصص الخوارق الآن ، كان يعني بالنسبة لهؤلاء الذين رووا هذه القصة جزءا من أحداث التاريخ القديم .

والصعوبة التي نلقاها ، هي أن نعرف ـ في الحالة التي نكون بصددها ـ متى ينتهي التاريخ ويبدأ الاختلاق .

حكاية البطل ، والملحمة النثرية :

اشرنا في بداية هذا الحديث الى ان حكاية البطل ، والملحمة النثرية يمكن تصنيفهما في اطار « قصص الخوارق » ، ويمكننا القول الآن ـ بالرغم من أن كل هذه التصنيفات تقريبية ـ أن حكاية البطل عبارة عن مجموعة من قصص الخوارق ، او حكايات الأحداث غير العادية مرتبطة بعمال بطل من ابطال التراث الشعبي ، الذي يسلم جدلا بوجوده ، وانها تتحد من فعاله أو مأثره مادة لها ، ويكون هذا البطل هو غايتها الأخيرة .

فاذا تتابعت تفصيلات هذه الاحداث التي تدور حول حياة الشخصيات ومغامراتها ، فهي في هذه الحالة تصنف كملحمة نثرية « سيرة شعبية » .

على أنه ينبغي ملاحظة أن حكاية البطل ، والملحمة النثرية ـ عالميا ـ غير متميزة بوضوح بعضها عن بعض .

واصطلاح « **حكاية البطل** » يتعبير بشموله عن حكايات العجائب الأخرى بسبب أن الحكاية من هذا النوع تدور في عالم خيالي صريح ، أو عالم يسبق في واقعه الخيالي ـ ان صح هذا التعبير ـ عالم حكايات الحيوانات أو حكايات العجائب . وعلى الرغم من أن الأخيرة تتصل بالطبع « أبطالا » فاننا نجد من الصعب أن نسميها حكاية « بطل » ، الا في حالة واحدة هي أن تقص علينا سلسلة من المخاطرات حول نفس البطل .

هذا ، ونجد أن الدارسين يفرقون بين الحكايات الشعبية بعامة وبين حكاية البطل ، والملحمة النثرية ، بان الشخصيات في الحكايات الشعبية مجهولة ، وانك لاتجد ـ في الغالب ـ تحديدا للزمان والمكان فيها ، كذلك فانها لا تروى بجدية على عكس حكاية البطل والملحمة النثرية ـ وأيضا فان الموضوع في الحكاية الشعبية محدد ونسمو « العقدة » فيها ويتطور الحدث حتى يصل الى نتيجته الطبيعية . على حين أن « حكاية البطل » تقص ـ فحسب ـ مغامرة أو طائفة من المغامرات ـ وتنتهي عندما لا يجد القصاص شيئا آخر يرويه ـ

ـ ٢ ـ

طبيعة الحكايات الشعبية

في كل مكان في العالم ، وفي كل حين يجد رواة القصص جمهورا مولعا بالاصغاء لحكاياتهم ، سواء كانت الحكاية التي يقصها الراوي مجرد تقرير للأحداث التي مر بها أو كانت أحدوثة تتصل بالماضي البعيد ، أو رواية منقحة أعاد ابتداعها .

في سائر هذه الأحوال نجد هذا الراوي أن الرجال والنساء ـ على السواء ـ متعلقين بكلماته مشدودين اليها . لأنها تلهمهم اشباع دوافع التشوق لحب الاستطلاع ، أو المتعة في الحض على الأفعال البطولية ، والتهذيب الديني ، أو الرغبة في الانعتاق من الرتابة التي تسود حياتهم .

في كل مكان في هذا العالم الرحب ، في قرى أواسط أفريقيا ، في القوارب التي تستخدم المحداف في المحيط الهادي ، في أدغال استراليا ، في ظلال تراكين هاواي ، تشد المستمعين بسحرها الغامض حكايات الماضي المثير ، وحكايات الحاضر أيضا ، وهي تحكي لهم عن الحيوانات ، والأبطال ، والآلهة ، أو عن رجال ونساء مثلهم ، أو تقوم باثراء أحاديث الحياة اليومية .

كذلك نجد أيضا ـ سواء في أكواخ الاسكيمو الثلجية تحت ضوء فتاديل زيت الحوت ، أو في أحراش البرازيل الاستوائية ، وفي اليابان والصين والهند أيضا نجد أن رجل الدين ، والمعلم ، والفلاح ، والصانع يشاركون في حبهم للقصة الجيدة ، ويتفقون في اعتزازهم بالراوي الذي يقصها في براعة .

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : ما الذى نعنيه بالحكاية الشعبية ؟

ولقد تحدثنا ـ فى ايجاز ـ عن بعض الخصائص التى تميز القصص المأثور بعامة . ونود أن نشير ـ فى ايجاز أيضا ـ الى المحاولات التى بذلت للوصول الى نوع من التعريف الحاسم بين الأشكال القصصية المختلفة .

ولقد استخدم اصطلاح « **حكاية شعبية** » استخداما طليقا لكى يعطى جميع أنواع القصص « الشعوى » المأثور .

وفى الانجليزية يستخدم هذا « المصطلح » ـ غالبا ـ للاشارة الى حكاية الجنيات أو « الحواديت » ، كما يستخدم أيضا بمعنى أكثر شمولا ليتضمن كل الأشكال الروائية النثرية ، شفوية كانت أو مدونة ، والتى وصلت الينا خلال العصور .

وفى هذه الحالة فان الحقيقة الهامة هى الطبيعة التراثية للمادة .

وفى بعض الاحيان نجد أن التعبير « حكاية العجائب أو حكاية الجنيات تستخدم للدلالة على قصص مليئة بمعارف لا تصدق كمقابل لقصة الخوارق التى يفترض ـ كما بينا ـ انها ترتكز على حقيقة .

الأمر الثانى أن « حكاية الجنيات » تبدو انها تتضمن وجود الجنيات فيها ولكن العالمية المطلقة من مثل هذه الحكايات ليس فيها ذكر للجنيات على الاطلاق .

ومن أجل كل ذلك نجد أن علماء الفولكلور يرون أن الاصطلاح الفرنسى خير من الاصطلاح الانجليزى ، ومثله فى ذلك المصطلح الالمانى ، فيهما « عمومية » يمكن أن تتضمنا أى نوع من القصص ، ويؤثر العلماء بالتفصيل ـ فى النهاية ـ المصطلح الالمانى .

ومهما يكن من أمر فاننا نجد أننا اذا أخذنا الحكاية الشعبية بمعنى محدد فان الدارسين يعنون بها : **الحكاية النثرية المأثورة التى انتقلت من جيل الى جيل سواء أكانت مدونة أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة .**

انها بالطبع ـ تمثل واحدا ـ فقط ـ من كثير من أنواع المادة القصصية ونهدف التحديد أو الاستخدام للاصطلاح فان أهم حقيقة كما ذكرنا فى طبيعة المادة « التراثية » .

* * *

وعلى عكس الجهد الذى يبذله مؤلف القصة الحديثة أو القصة الأدبية نجدنا فى الاصالة والابتكار فى معالجة القصة وفى « المقدمة » ، على العكس من ذلك نجد أن راوى الحكاية الشعبية يحور بقدرته فى أن يسلم ما سبق له أن تلقاه .

انه يجب ـ فى العادة ـ أن يؤثر فى المستمعين اليه أو فى الذين يقرءون له تأكيد هذه الحقيقة ، وهى أنه يقدم اليهم شيئا موثقا ، وأنه قد سمع حكايته من بعض الرواة العظام ، أو من بعض الرجال المتقدمين فى السن ، الذين ما يزالون يتذكرون هذه الحكاية من الأيام الماضية البعيدة .

اننا نجد كذلك أن الفن الشعوى فى حكاية القصة أقدم بكثير من التاريخ

كما ان هذا الفن لا يمكن أن يحد بقارة من القارات ، او بحضارة من الحضارات .

وقد يختلف القصص - من حيث الموضوع - من مكان الى مكان آخر ، وقد يعترى التغير حالات ، الفص ، واغراضه عندما ينتقل من قطر الى قطر ، او من عصر الى عصر آخر ، ولكنا نجده في كل مكان يقوم بخدمة نفس الاحتياجات الاجتماعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات الفردية .

ان الفضول نحو الماضي يجتذب المستمعين دائما ، ويثير شوقهم لحكايات الماضي البعيد الذي يعد الرجل البسيط بجميع معارفه عن تاريخ جماعته .

ولقد نمت مع القص حكاية الأحداث ، وانبسط الماضي البطولي العظيم - غالبا - لعرض ارضاء الزهو والفخر القبلي .

كما ان الدين قد لعب - في كل مكان - دورا هاما في تشجيع الفن الروائي ، لان العقلية الدينية قد حاولت أن تتفهم البدايات ، وراحت - لعدة أجيال - تحكي قصص الكائنات المقدسة ، وحكايات الأيام الغابرة .

- ٣ -

دراسة الحكايات الشعبية

لقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ أن بدأ علماء الاثنولوجيا والفولكلوريون يولون اهتمامهم بشكل حدى لجميع مظاهر التراث الانساني .

وتاريخ البحث في هذه الحقبة ، فيما يتعلق بهذه المجالات ، يظهر التغييرات المختلفة التي حدثت في هذه المناهج ، كما يظهر أيضا البدع الكثيرة التي حدت من نشاط الدارسين .

وفي بادىء الأمر لا نجد سوى ملاحظات اعتباطية على التشابه الغريب في العادات والعقائد والأغاني والحكايات الشعبية في جميع أجزاء العالم .

ومن هذه البداية نجد أن التطور الطبيعي للدراسة قد أنشأ النسج المنظم الذي ادى الى حشد كثير من النظائر ، فكان ان تأثر الدارسون الأوائل تأثرا شديدا بهذه المتشابهات مما قاد ميلهم الى الاستقصاء بدقة تامة .

وعلى هذا فقد صارت لدينا المجموعات الضخمة « لتوريرز » ، والتي اينعت في النهاية في « القص الذهبي » ، وغير ذلك من المجموعات المختلفة في الحكايات الشعبية .

وقد بذلت المحاولات المتأنية لتفسير هذه المواد بقدر الامكان .

وقد أنجزت بعض هذه الأعمال بمهارة فائقة ، وما تزال حائزة لتقدير جم الدارسين .

غير أن الاتجاه المبالغ فيه نحو تشكيل مدارس الفكر كان موجودا ، وكذلك محاولة حل جميع المشكلات بتطبيق قاعدة مفردة .

ولقد كان طبيعيا أن تقود التفسيرات المختلفة لمفهوم الفولكلور ، وأيضا المناهج المتعددة الى وجود كثير من المدارس الفولكلورية .

ونستطيع أن نذكر – على سبيل المثال – طائفة من هذه المدارس التي تبحث في الحكايات الشعبية من مثل : **المدرسة الادبية أو الهندية مدرسة** ، بنفي ، وأتباعه الذين حاولوا اقرار الأصل الهندي للحكايات الشعبية الأوربية .

والمدرسة الأسطورية مدرسة ، ماكس موللر ، التي رأت أن الحكايات الشعبية ، موروثات ، باقية للأساطير القديمة ، وبخاصة أساطير الطبيعة . **والمدرسة الأنثروبولوجية** ، ومن اعلامها ، أندرو لانج ، ، والتي اهتمت بالأساس التقاني للحكايات ، ورأت أنها بقايا حضرية لثقافات الماضي البعيد . **ثم المدرسة التاريخية الجغرافية** ، مدرسة ، كرون ، وآرني ، وطومسون ، والتي تتبع المنهج المعروف باسمها ، والذي يسمى أحيانا : المنهج الفنلندي والذي يهتم بجمع المادة وتصنيفها ، ويرى أن لكل نسخة من المأثورات تاريخها الخاص ، يقتضي دراستها مستقلة عن غيرها .

هنالك أيضا مدارس أخرى منها **المدارس الوظائفية الحديثة** التي تقوم بفحص الحكايات في بيئتها .

وقد شهد منتصف القرن الماضي زيادة في الاهتمام بالحكايات الشعبية ، وامكن جامعو التراث الشعبي – في معظم بقاع الأرض – على الاصغاء الى القصاصين وتسجيل حكاياتهم .

وأخذت الأساليب الفنية في التسجيل والنشر التي يتبعها هؤلاء الجامعون تتطور وتنتقل من حسن الى أحسن .

وفي الوقت نفسه نجد أن بعض الدارسين قد قاموا بتصنيف الحكايات الشعبية وتعمل ، مسح ، شامل يعرض تهيئة هذا القدر الكبير من المادة للدراسة العلمية .

كما قام بعضهم بوضع المناهج لدراسة المرويات الشفوية ، على حين انصرفت طائفة ثالثة الى استخدام هذه المناهج للكشف عن تاريخ كثير من القصص المشهور .

وقد أسهمت أنواع النشاط المختلفة هذه في القاء الضوء في كثير من الأمكنة التي كانت مجهولة من قبل .

كما أسهمت كذلك في تصحيح النظريات المبكرة ، أو النظريات الخاطئة غير الناضجة .

وكان من نتائج كل ذلك أنه قد بدأت تتضح لنا كثير من الحقائق ، فبدأنا نرى أن الحكاية الشعبية هي أكثر اشكال المرويات عالمية ، وبدأنا نفهم علاقتها بالقصص الأدبي الذي أنتجته الحضارة الراقية .

وأدركنا كذلك وظيفة الحكاية في حياة أولئك الذين يقومون بروايتها ، وأولئك الذين يستمعون اليها .

وأيضا طبيعة هذا ، الفن ، في الأقطار المختلفة ، والأزمنة المختلفة .

وفي الوقت نفسه نجد أن هذا الموضوع – بحسب طبيعته – موضوع عظيم الأهمية لجميع الدارسين – الحاذين – للأدب ، وعلم الانسان ، وعلم النفس ، وللفن بصفة عامة .